التراث والعلوم الإسلامية لكل الشعب

الرسالة القشيرية

(للإمام أبو القاسم القشيري)

النيسابوري الشافعي المتوفى سنة ٤٦٥ هجرية

سيرة ذاتية ومزاج
ومفاهيم صوفية
لأقطاب التصوف الإسلامي

تحقيق :

العارف بالله الإمام عبد الحليم محمود
والدكتور محمود بن الشريف

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

مطابع مؤسسة دار الشعب - للصحافة والطباعة والنشر
٩٢ شارع قصر العيني - القاهرة ت : ٣٥٥١٨١٠ - ٣٥٥١٨١٨ - ٣٥٤٣٨٠٠

□ الغلاف تصميم :
حسن احمد خليل
□ الأعداد الفنى :
انور عبد الدايم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل مخلوق وخير مبعوث ، وعلى آله وأصحابه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين .

(ربنا آتنا من لدنك رحمة ؛ وهيىء لنا من أمرنا رشدا)

من تراثنا الروحى

الرسالة القشيرية

التدين فى اسمى صوره .. والايمان فى ايجابيته .. والاحسان فى العادة والعبادة ، والتصوف ، كل هذه المفاهيم بمعنى واحد ، تتكتل وتتجمع تحت ظلال كلمة واحدة .. كلمة « الاسلام » وكل هذه المسميات روافد فرعية تتلاقى عند النبع الاصيل عند الشريعة الاسلامية فى روحانيتها وسماحتها وفى اشراقها وشفافيتها .

ولقد وقر فى بعض الاذهان ان التصوف يباين التدين او يغاير الاسلام ، وان له مفهوما سلبيا يدعو الى الركون والركود والخمود والخمول ، ويهدف الى العزلة والعكوف والانطواء او انه دروشة وبهدلة ومظاهر تنفر منها الأذواق وتنبو عنها العيون وتعزف عنها النفس الابية .

وتبلبلت الفكرة فى اذهان الكثيرين عن التصوف وحقيقته وطقوسه ورسومه فحملوا على التصوف وعلى رجاله مدعين ان هذا الأمر مستحدث فى الدين وان الشرع يعارضه ولا يعاضده ، ومن جهل امرا عاداه ، فلا جرم ان كانت بين هؤلاء وبين اهل التصوف جفوة او فجوة .

ولو تانى هؤلاء المتسرعون فى احكامهم على التصوف ، ولو تزود خصوم التصوف بالاطلاع على امهات كتب التصوف التى ارخت لروادة وتحدثت عن خطوطه واتجاهاته لوجدوا انهم متحاملون عليه وانهم قد تسرعوا فى الحكم من غير ان يتسلحوا بالبرهان .

ومن امهات الكتاب التى جلت مفهوم التصوف وفصلت فى قضيته فى حسم وحزم كتاب « الرسالة القشيرية » للامام ابى القاسم عبد الكريم القشيرى من علماء القرن الخامس الهجرى .

وفى اوائل ذلك القرن راى الامام القشيرى مناحى تنبعث منها روائح الانحراف الدينى ونواحى تخالف التعاليم الاصيلة وتجافى السلوك الاسلامى وتتنافى مع روح الدين وسماحته .

راى تعاليم الدين تنتهك باسم التصوف .. وراى سفارات تزيف وقيما تغير ومعايير يتجه بها فى غير اتجاهها .. راى كل ذلك يرتكب باسم التصوف .. راى اهل الفشور المظهرية ، وراى اهل المغالاة والشطط ، وراى اهل الزيف والجنوح . رآهم وجلهم يدعون انهم متصوفة ويسيرون تحت لواء التصوف يتشدقون بالحفاظ عليه ويزعمون انهم وحدهم هم حفظته وسدنته ودعاته ورعاته .

وخشى القشيرى ان تمتد اثواب الباطل فتغطى وجه الحق او تتبلد سماء الحقيقة بغيوم الاكاذيب وبسحب الترهات فتحول بين اشراق الحق او تحجب نوره ولو الى حين .

وحتى لا تضيع معالم الحق بين متاهات الباطل ولأجل ان يضع حدا فاصلا بين التصوف الصرف والتصوف الزائف ، اخرج هذه الرسالة القشيرية لتكون النبع الصافى الذى يستقى منه كل دارس للتصوف وكل مستشرق للنور ، ويرد كل جانح او جامح الى حظيرة الحق ، ولتبين المنهج الصوفى الصحيح وانه هو المنهج الاسلامى بعينه لا فارق ولا لبس ولا اختلاف وان التصوف

فى صفائه ونقائه هو الايمان المتين المكين فى عنفه وقوته وايجابيته .. وهو الاسلام فى سماحته وسموه .. وهو التدين فى أسمى صوره ، وهو الارستقراطية الاسلامية على حد تعبير الأستاذ محقق الرسالة القشيرية الدكتور عبد الحليم محمود .

ويسوق المؤلف فى كثير من مواضع الكتاب كثيرا من الأدلة والأقوال يقرن بها تلك القصة السالفة ويؤكدها ، فهو ينقل عن البزار قوله : « من علم طريق الحق سهل عليه ادراكه ، لا دليل على الطريق الى الله الا متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أحواله وأفعاله وأقواله.

وقد صدر الامام القشيرى رسالته بمقدمة عرض فيها بايجاز وعمق وتركيز خصائص التصوف واسلوك الصوفى ومناخه العقيدى وتياره التاريخى ثم كشف عن نفسيات المنتفعين من السوقة المتسربلين برداء التصوف المتسترين به ليخفوا وراءه نوازعهم الشريرة ومنازعهم الآثمة .

ثم فضح حال المستهينين بالعبادة المجترئين على الله الذين تحللوا من تبعات التكاليف بحجة انهم قد وصلوا وتحرروا .. وكوشفوا بالأسرار وزالت عنهم أحكام البشرية فلم تبق فيهم بقية يتعلق بها التكليف لتمام فنائهم حتى صاروا الى حالة ينتفى فيها العتب وينعدم اللوم على كل ما يصدر عنهم .

وفى نهاية المقدمة اعرب القشيرى عن احاسيسه تجاه هؤلاء الذين حادوا عن السنة الصوفية وعن المنهج الصوفى وعن يأسه فى أن يرتدوا الى الجادة . وعن ذلك يقول :

« مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء وقل الشباب الذين لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء ، وزال الورع وطوى بساطه واشتد الطمع وقوى رباطه ، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة ، فعدوا قلة المبالاة بالدين اوثق ذريعة ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، واستخفوا بأداء العبادات واستهانوا بالصوم والصلاة وركضوا فى ميدان الغفلات وركنوا الى اتباع الشهوات ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال حتى ادعوا انهم تحرروا عن رق الاغلال وانهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه ، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم ، وانهم كوشفوا بأسرار الاحدية وزالت عنهم أحكام البشرية .. ثم يقول :

ولما ابى الوقت الا استصعابا اشتبهت على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر « أى الصوفية » على هذه الجملة « أى المزاعم والافتراءات » بنى قواعده .. فالفت هذه الرسالة .. » .

وفى صدر الرسالة القشيرية باب ارخ للتصوف وبين مجراه التاريخى فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عهد المؤلف وابان كيف اطلقت التسمية « بالصوفية » وكيف تطورت خلال المائتى سنة من بدء الهجرة كما ارخ لرواد التصوف وشيوخه فترجم فى صدق لنيف وثمانين شخصية صوفية وسجل أحوالهم جميعا نقل عن أساتذته .

وفى نهاية حديثه عنهم قال : « هذا هو ذكر جماعة من شيوخ هذه الطائفة ، وكان الغرض من ذكرهم فى هذا الموضع التنبيه على أنهم مجمعون على تعظيم الشريعة ، متصفون بسلوك طرق الرياضة ، مقيمون على متابعة السنة غير مخلين بشىء من آداب الديانة متفقون على أن من خلا من المعاملات والمجاهدات ولم يبد أمره على أساس الورع والتقوى كان مفتريا على الله سبحانه وتعالى فيما يدعيه ، مفتونا ، هالكا فى نفسه ، واهلك من اغتر به ممن ركن الى اباطيله .

وها نحن : أولاء نراه أيضا فى أقواله السالفة ذلك يعرج على تلك القضية السابقة قضية ان الدين هو التصوف لا فارق ولا اختلاف ويعرض بهؤلاء المنحرفين الذين احدثوا فراغا وهوة بين

الدين وبين ما زعموه انه تصوف وخلص الى أن التصوف هو الورع النقى هو المتمسك بآداب السنة وتعاليم الديانة .

تم يبسط القول بعد ذلك فى باب خصصه لتبيان الألفاظ والمصطلحات والتعبيرات التى تدور فى محيط الصوفيين وكان هدفه من ذلك كما قال : ونحن نريد بشرح هذه الألفاظ تسهيل الفهم على من يريد الوقوف على معانيهم من سالكى طرقهم ومتبعى سننهم » .

تم يدلف الى مفاهيم التصوف ، التى هى مفاهيم الاسلام وكلياته فيفسرها ويفصلها بعد ان يدعمها بآيات من كتاب الله ويطعمها بأحاديث من هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيفرد أبوابا يتحدث فيها عن التوبة والتقوى وعن الورع والخشوع وعن الصبر والرضا وعن الغيرة والحرية وعن التوحيد والعبودية وعن الاخلاص والاستقامة وعن السلوك والاخلاق وغير ذلك من الكليات التى بلغ تعدادها الخمسين .

وفى باب التصوف تحدث فى مقدمته عن الصوفية وهل هى اسم أو لقب ، وقال انه ليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق وفند قول من قال انه مأخوذ من الصوف أو من النسبة الى الصفة أو أنه مشتق من الصفاء ، ثم تحدث عن معنى التصوف واورد عدة أقوال لعديد من الأئمة ذكر منها قول الجنيد ، وقد سئل عن التصوف ، فقال هو : أن يميتك الحق عنى ويحييك به وقول « رويم » هو استرسال النفس مع الله على ما يريد وقول ذى النون عن الصوفية : هم قوم اتروا الله على كل شىء فآثرهم الله على كل شىء .

ثم أفرد بعد ذلك أبوابا عدة تحدث فيها عن الولى والولاية ـ والأولياء وأفاض فى معنى الولاية كما افاض وافاد وفى عرض ما قيل حول كرامات الأولياء وعصمتهم والمريدين وآدابهم .

ومؤلف تلك الرسالة هو الامام أبو القاسم عبد الكريم القشيرى ، عربى من قبيلة « قشير ابن كعب » ولد فى نهاية القرن الرابع الهجرى ببلاد فارس فهو عربى الأصل خرسانى المولد حاطته مظاهر النعيم منذ صغره الا انه حـ عطف الاب الذى وانته منيته بعد استهلال ولـ هذا ، وكان يتميز بنضج ذهنى يفوق سـ وبفطرة نقية وعقلية نيرة قربته من استاذه ابى ع الدقاق وقربت استاذه منه ، وانتهى الأمر بالا القشيرى ، الى ان اصبح كما يقول عنه الا عبد القادر « امام مطلقا » المتكلم الأصو المفسر الأديب النحوى الكاتب الشاعر لسـ عصره وسيد وقته وكان يعرف الاصول مذهب الاشعرى والفروع على مذهب الشافعى

وقد توفى الامام القشيرى بعد ان ترك ذخ من تواليف قيمة فى ميدان التفسير والسـ والاخلاق والتوحيد والحديث وقارب ما عر من كتبه المخطوطة والمطبوعة قرابة ثلاثين كتابا وقد مات سنة ٤٦٥ هجرية بمدينة نيسـا ودفن بجوار شيخه ابى على الدقاق .

وللرسالة القشيرية طبعات قديمة لم يك لها اناقة الاخراج ولا جمال المظهر ولا كم التحقيق ، آخر طبعة حديثة قام بتحقيقها ا من رواد الصوفية فى عصرنا الحالى و من اعلامها جمع بين الثقافتين الاسلامية والأور هو الدكتور عبد الحليم محمود من الذين عاش التصوف دراسة وسلوكا ومنهجا وتطبيقا ح أطلق عليه لقب « غزالى مصر » فاخرج الرس فى طبعة مضبوطة محققة منقحة مفهرسة .

وكم نتمنى ان نظهر لهذا السفر القيم طب ميسرة تقرب الكثيرين من ان ينهلوا من هـ المنهل الاسلامى ويعبوا من هذا النبع الصافى فيفيدوا بما فى الرسالة من فقه وهدى واسرا وصفاء وصوفية .

وها هى ذى الامنية قد تحققت بحمد ا فى هذه الطبعة التى هى الآن بين أيدى قرا الأماثل . والله الموفق وهو المعين .

الدكتور محمود بن الشري
استاذ التصوف والاخلاق بالدراسات العل
بكلية الدراسات الاسلامية والعربية ـ جامع
الأزهر

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم : « والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر » .

إن معالم الإيمان ، وسمات التدين ، والفكرة الصحيحة عن الهدف الذى من أجله خلق الإنسان ، والمنطق السليم فى الصلة بين الله والعالم . . إن كل ذلك بكاد — فى العصر الحاضر — يندرس ويتلاشى .

وإنه لمن المؤكد ، أن الأغلبية العظمى من الناس الآن يسيرون فى الحياة دون شعور واضح برسالة السماء ، وتوجيهها ، وهديها !! وإنهم بذلك لفى خسر ، وإنهم بذلك لمن الأشقياء . ومع أن رسالة السماء ، لا تعقيد فيها ، ومع أن هدى الله سهل واضح ؛ فان الإنسان يحاول — منذ أن كانت الرسالة الإلهية — أن ينشق عليها ، وأن يقف منها موقف المتمرد .

هذه الرسالة ، يمكن تلخيصها فى كلمة : « الإسلام » وليس هناك من تعبير ادق ، ولا أجمل من هذا التعبير ؛ إنه دقيق فى معناه ، جميل فى جرسه .

ورسالة الله إلى الإنسان : **هى أن يلقى الإنسان بقياده إلى خالقه ، هى أن يسلم** الإنسان نفسه لربه . والمسلم من أسلم لله أمره ، إنه الذى يعتنق مبدأ السلام مع الله ، فاذا ما اعتنق مبدأ السلام مع الله كان قلبه سلاماً بالنسبة إلى نفسه : أى هدوءاً واطمئناناً ، وسلاماً بالنسبة إلى الله : أى رضاً وغبطة ، وسلاماً بالنسبة إلى الخلق ، فيسلم الخلق — للسلام الذى بعمر قلبه — من لسانه ويده .

فاذا ما : « اسلم » الإنسان ، فقد استجاب إلى الدعوة الإلهية .

* * *

هذه الدعوة التى تتسم بالتوحيد ، والوحدة والوحدانية ، والتى يعبر عنها بالإسلام : تختلف فى موقفها بالنسبة لتوجيه الإنسان ، بحسب موضوع التوجيه ؛ ذلك أنها توجه الإنسان بالنسبة للطبيعة ، للكون المادى للعالم المحس ، وفى هذا المجال تأمره أمراً ، وتفرض عليه فرضاً ، أن يغزو هذا العالم : فيصل إلى أعمق

أعماق الأرض والبحار ، ويرتفع فى الأفق إلى أبعد ما يصل إليه العلم بوسائله وآلاته ، ويغزو الفضاء فيما بين السماء والأرض ، وتترك له الاختيار فى استخدام الوسائل ، لذلك : لاحجر عليه فى الحرية ولاتضييق .

وموقف الدين الإسلامى من العلم واضح كل الوضوح ، فأول كلمة فى الدستور الإسلامى : « القرآن » هى : « إقرأ . . . » . ثم إن الآيات القرآنية التى تحث على العلم ، وتبين فضل العلماء كثيرة : يقول الله تعالى ، لنبيه ، صلى الله عليه وسلم : « وقل رب زدنى علماً » ، ويقول الله تعالى : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات . . .) ويقول تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء . .)

أما الأحاديث النبوية : فانها هى الأخرى كثيرة ، من أجمعها : الحديث الذى رواه أبوداود ، والترمذى ، يقول صلوات الله وسلامه عليه :

« من سلك طريقاً يبتغى فيه علماً ، سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من فى السماوات ، ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولادرهما إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

وقد وضح هذا الاتجاه فى القرآن ، وفى الأحاديث الشريفة ، وضوحاً بينا ، فاندفع المسلمون إلى البحث فى جميع ميادين الحياة : روحية كانت أو عقلية أو مادية . . .

ونشأ عن ذلك : الحضارة الإسلامية التى أنتجت أمثال : جابر بن حيان فى الكيمياء ، وابن الهيثم فى الطبيعيات ، وأبى بكر الرازى فى الطب ، وابن سينا فى الطب كذلك والفلسفة ، والغزالى فى الجانب الروحى ، وابن رشد فى الفلسفة العقلية ، وابن خلدون فى الاجتماع والتاريخ . . ، وكثيرين غيرهم .

وقد أشاد كثيرون من منصفى الغربيين بالحضارة الإسلامية وبمناهجها بقول (غوستاف لوبون) :

« ويعزى إلى بيكون ، على العموم : أنه أول من أقام التجربة والملاحظة اللتين هما أساس المناهج العلمية الحديثة ، مقام الأستاذ . ولكنه يجب أن نعترف ، قبل كل شىء ، بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم .

ويقول العلامة الشهير : « همبولد » بعد أن يذكر أن ما قام على التجربة والملاحظة : هو أرفع درجة فى العلوم : « إن العرب ارتقوا فى علومهم إلى هذه الدرجة التى كان يجهلها القدماء تقريباً » .

ويتبين لنا من هذا أن الإسلام :

- يحث على العلم ويشجعه ، ويدعو إليه ، ويأمر بالاستزادة منه .

- وأن روح الإسلام هذه أنتجت حضارة خصبة عمت جميع زوايا الحضارة المادية وجوانبها .

* * *

بيد أن : « إقرأ » ، أو الأمر بالعلم والثقافة فى الإسلام قيّد بأن يكون : « باسم الله » ؛ وبذلك ينتفى الإيذاء والضرر فى العلم ، وبذلك أيضاً تفترق حضارة الإسلام فى هذا الجانب عن الحضارة الغربية ، فالحضارة الغربية لم تنشأ : « باسم الله» وإنما نشأت : باسم العلم . ومن أجل ذلك سخرت العلم فى التنكيل ، والدمار ، والاستعمار ، وإشقاء الإنسانية . .

وحضارة الإسلام نشأت باسم الله ، ولم تنشأ باسم العلم ، ومن أجل ذلك كان هدف العلم فى الإسلام إرضاء الله وإسعاد الإنسانية . هذا شأن الإسلام بالنسبة للكون المحس .

على أن : « إقرأ باسم ربك الذى خلق » حينما تقيّد العلم والثقافة بأن يكونا : باسم الله ، وحينما تصبغ دراسة الكون بصبغة التوجه إلى الله ، فانما تضعنا مباشرة أمام توجيه إلهى سافر - لا لبس فيه - يرشدنا إلى وجوب إعطاء جميع الأعمال التى نقوم بها ، صورة العبادة : ذلك أن ما كان باسم الله ، فهو عبادة .

وإن : « إقرأ باسم ربك الذى خلق » تنص على أن القراءة لاتكون : باسم منفعة شخصية ، ولا باسم مصلحة إقليمية ، ولا باسم غاية مادية أياً كانت ، ولا باسم وزير ولا أمير ، ولا باسم وطن أو بيئة ، وإنما هى : باسم الله ، وإذا كانت باسم الله ، فانها تفيد الشخص باعتباره فرداً ، وتفيد المجتمع الخاص الذى نسميه : « وطنا » ؛ وتفيد المجتمع الإسلامى العام ، بل وتفيد الإنسانية جمعاء .

إذا ما تجردت القراءة لله تعالى ، وكان هدفها الأول والأخير هو : « الله » : مصدر الخير والنور ، كانت : خيراً ، وكانت نوراً فى جميع الأرجاء ، وفى جميع الأزمان .

وما كان يقصد للقرآن قط بهذه الكلمة الأولى ، للقراءة وحسب ، وإنما كانت للقراءة رمزاً لكل ما يأتيه الإنسان فى الجانب الإيجابى وكل ما يدعه الإنسان فى الجانب السلبى .

إن هذه الكلمة الأولى ، تريد أن تقول: اقرأ باسم ربك . . تحرك باسم ربك ، تكلم باسم ربك ، إعمل باسم ربك . . .

أما إذا امتنعت عن حركة أو فعل ، فينبغى أن يكون ذلك أيضاً باسم ربك ، ويكون معنى الآية فى النهاية : جرد حياتك كلها وكيانك كله : أسباباً وغايات لله سبحانه وتعالى .

وإذا كانت الآية الكريمة واضحة المعنى فى الجانب الإيجابى ، الذى يحث على القراءة ، والذى يحث على أن تكون القراءة : باسم الله ، فان الجانب السلبى - قد نزلت فيه - فيما بعد - آيات صريحة الدلالة ، واضحة المعنى ، يقول الله تعالى :

« ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ، وإنه لفسق » .

وأما ما ذبح على النصب : فلم يرد به الذابح وجه الله تعالى ، فهو أيضاً فسق ؛ لأنه لم يذكر اسم الله عليه ؛ فكل ما لم يذكر اسم الله عليه يجب إذن الامتناع عنه .

أما الإقدام عليه ، فانه فسق يتفاوت فى درجته من الرجس ، زيادة ونقصانا .

وهكذا يضعنا الإسلام منذ « إقرأ باسم ربك » : أى منذ اللحظة الأولى من تاريخه ، على قمة الإخلاص ، وعلى قمة الإحسان ، وفى خضم من التقوى ، وعلى السنام من الصدق .

فما دامت الحياة كلها لله ؛ فليس هناك مجال للكذب ، والرياء ، والنفاق ، والخديعة ، وإرادة غير الله بالأعمال .

وإزالة لكل لبس فى هذا الجانب ، وحماً فى ان يسير الإنسان فى الحياة على بينة من أمره - فيهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة - حدد الله ،

سبحانه وتعالى – تحديداً واضحاً كل الوضوح – الغاية التى خلق الإنسان من أجلها ، بقول سبحانه :

(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) .

والإسلام يريد بذلك أن تكون حياة الإنسان فى جميع اتجاهاتها ، وفى جميع جوانبها وزواياها . . حياة الإنسان أسساً وبواعث . . وحياة الإنسان وسائل ومناهج . . وحياة الإنسان أهدافاً وغايات . . . يريد الإسلام أن يكون كل ذلك : عبادة .

وليس ذلك بالأمر المستحيل ؛ فالعمل الواحد يعمله شخص من الأشخاص ، فيكون عملا دنيوياً ، ويعمله شخص آخر فيكون العمل دينياً .

بل إن العمل الواحد يعمله الشخص الواحد فى وقت ما ، فيكون دنيوياً ، ويعمله هو نفسه فى وقت آخر فيكون عبادة ، وكل ذلك إنما هو بحسب النية ، بقول صلوات الله وسلامه عليه :

« إنما الأعمال بالنيات ؛ وإنما لكل امرىء مانوى ؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

فاذا ما أراد الإنسان بعمله وجه الله كان للعمل : عبادة مهما أغرق فى الصورة الدنيوية ، وأحاديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى هذا الجانب كثيرة معروفة .

بيد أن العبادة من ناحية قيمتها الروحية : درجات لا تحصى ؛ إنها قد تكون شكلا من الأشكال ، مجرد شكل ، لاقيمة لها ؛ ولا وزن فى مقاييس الروح وموازينها . . وقد تسمو وتسمو ؛ فتصل إلى : « أن تعبد الله ؛ كأنك تراه ؛ فان لم تكن تراه ؛ فانه يراك » .

ولقد كان الرسول ؛ صلوات الله وسلامه عليه ، المثل الأعلى لنا فى أن نعبد الله ؛ كأننا نراه ، أو فى أن نرى الله فى جميع مانأتى وما ندع ؛ فى الكون نذلله ونسخره ، وفى المجتمع نصلحه ونهذبه . . وفى العمل نتقنه ونخلص فيه . . وفى الحديث نتحرى فيه الصدق والأمانة . . .

لقد حوّل الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، الحياة إلى عبادة ، فكان العمل عبادة ، وإن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلا السعى على المعاش ، والجهاد عبادة وإن أفضل الأعمال : الإيمان ، ثم الجهاد .

ولقد وصل الأمر به صلوات الله وسلامه عليه : أن جعل الأكل والشرب والمشى عبادة .

وهكذا أصبحت الحياة حركة وسكوناً لله ، سبحانه ، فأصبحت الحياة كلها عبادة : « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين» .

ولقد وضح هذا الاتجاه منذ اللحظة الأولى للوحى : « إقرأ باسم ربك الذى خلق » ثم إن القرآن كله فسره ، ووضحته أعمال الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه : الحياة عبادة ، الأنفاس ، والحركات ، والسكنات والنوم ، واليقظة ، الحياة كلها بل ، والموت عبادة .

تلك هى حياة الصوفية ، وذلك هو معنى الدين ، وهو معنى الإسلام ، وهو ما أراده الله بصريح آياته الكريمة وهديه المستقيم .

* * *

إن توضيح هذا ونشره ، والعمل على إحياء معنى للدين ، ونشر للشعور الدينى ، وبيان معنى : « الإسلام وقيادة الأمم ـ من أجل سعادة الإنسانية ـ لتسلم وجهها لله . . . ذلك هو المهمة الأولى لعلماء للدين : أجل مهمة ، وأسمى وظيفة . . . إنها وظيفة الأنبياء والرسل .

ومن أجل ذلك ومساهمة منا فى توضيح الطريق ، نشرنا هذا الكتاب راجين الله ، سبحانه ، أن يجعل ذلك فى ميزان حسناتنا .

نشرنا هذا الكتاب الذى يتحدث عن الصوفية وعن التصوف .

ذلك ان الصوفية هى الطائفة التى تعبد الله ـ فى كل عصر ـ كأنها تراه .

وهى الطائفة التى تحس إحساسا واضحا بالفكرة الدينية فى معناها العميق .

إنهم مثل عليا كأشخاص ، ومثل عليا كمبادىء إنهم أمثلة حية لما ينبغى أن يكون عليه المتدين وهم أمثلة حاولت الكمال فى الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم والتخلق باخلاق القرآن .

١ ـ وفى نشر هذا الكتاب رسم لفكرة العبودية الصحيحة ، وتوضيح لما ينبغى أن تكون عليه الصلة بين الإنسان وربه ، وبين الإنسان ومجتمعه .

٢ ـ ومما لاشك فيه أن كل ما يقرؤه الإنسان يؤثر فيه ، ونحن إذن سعداء بالأثر الجميل الذى سيكون ـ باذن الله ـ ثمرة لنشر هذا الكتاب .

٣ ـ ولقد أحضرنا مخطوطتين للرسالة القشيرية من تونس : إحداهما بخط مشرقى ، والأخرى بخط مغربى ، وبسعدنا أن نخرج النص محققاً صحيحاً .

٤ ـ ولقد ألف الإمام القشيرى ، هذا الكتاب تصحيحاً وتوضيحاً للفكرة الصوفية فى سلامتها ، ونقائها . ونحن سعداء باحياء هذا الكتاب فى هذا العصر الذى شوهت فيه الفكرة عن التصوف ، وأنكر كثير من الناس ـ عن جهل ، أو متعمدين ـ المثل العليا فى الأخلاق ، والمعاملات ، التى دعا إليها الصوفية .

٥ ـ ولقد كان كثير من الباحثين يتمنون أن يكون هذا الكتاب الذى يعتبر مصدراً أصيلا من مصادر التصوف ـ بين أيديهم محققاً مفهرسا وبسعدنا أن نحقق لهم هذه الرغبة .

ولقد كان من تيسير الله ، لهذا العمل ، أن هذا الكتاب قد شرحه علم من أعلام الإسلام ، هو شيخ الإسلام : زكريا الأنصارى ، وكتب علم من اعلام الإسلام ، هو شيخ الإسلام : السيد مصطفى العروسى ، على الشرح حاشية نفيسة .

وقد استفدنا من الشرح والحاشية واغترفنا من أنوارهما الكثير .

* * *

أما مؤلف الكتاب : فانه الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى النيسابورى الشافعى (٣٧٦هـ ـ ٤٦٥هـ) .

ولد رضى الله عنه سنة : ست وسبعين وثلمائة ، فى شهر ربيع الأول ، فى بلدة « إستوا » وكان سكانها من العرب الذين قدموا خراسان .

وهو عربى من قبيلة « قشير بن كعب » .

توفى أبوه وهو صغير ، فربى يتيما ، ولكن النجابة ظهرت فيه من صغره ؛ فتثقف بالأدب والعربية . ولكنه لم يكن يعلم الحساب فذهب إلى « نيسابور » ليتعلم طرفاً من الحساب ، حتى يتمكن من إدارة قرية له باستوا .

وارادت المقادير ، ان يحضر درس أبى على الدقاق ، فيرى إخلاصا ويرى تقوى ، ويرى نورا يرتسم على وجهه ، ويشرق من كلماته فينير قلوب السامعين ، ويجذبهم إلى الله . وكانت فطرة القشيرى النقية على استعداد تام لسلوك الطريق ، ورأى الإمام ابو على الدقاق فيه النجابة ، فقبله فى زمرة مريديه ، ثم اصطفاه فى زمرة أخصائه ، وزوجه ابنته ، مع كبرة أقاربها .

وانتهى الأمر بالقشيرى إلى أن اصبح - كما يقول عنه الإمام عبد الغافر - « الإمام مطلقا ، الفقيه ، المتكلم ، الأصولى ، المفسر ، الأديب . النحوى ، الكاتب الشاعر ، لسان عصره وسيد وقته ، وسر الله بين خلقه ، مدار الحقيقة ، وعين السعادة ، وقطب السيادة ، من جمع بين الشريعة والحقيقة ، كان يعرف الأصول على مذهب الأشعرى والفروع على مذهب الشافعى . . » .

ولقد ترجم له صاحب كتاب : « دمية القصر » ابو الحسن الباخرزى فقال :

« جامع لأنواع المحاسن تنقاد له صعابها ذلل المراسن ، فلو قرع الصخر بصوت تحذيره لذاب ، ولو ارتبط إبليس فى مجلس تذكيره لتاب ، وله فصل الخطاب فى فصل المنطق المستطاب ، ماهر فى التكلم على مذهب الأشعرى ، خارج فى إحاطته بالعلوم عن الحد البشرى ، كلماته للمستفيدين فوائد وفرائد . وأعقاب منبره للعارفين وسائد . ثم إذا عقد بين مشايخ الصوفية حبوته ، ورأوا قربته من الحق وحظوته : تضاءلوا بين يديه ، وتلاشوا بالإضافة إليه ، وطواهم بساطه فى حواشيه ، وانقسموا بين النظر والتفكير فيه وله شعر يتوج به رءوس معاليه ، إذا ختمت به أذناب أماليه . . . » .

وقد كتب الإمام القشيرى كثيرا من الكتب منها :

١ - الرسالة القشيرية التى نقدمها اليوم للقراء مغتبطين . كتبها المؤلف فى سنة : سبع وثلاثين واربعمائة « إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام » .

كتبها تصحيحا لاوضاع كثيرة انحرفت ، وبيانا لما ينبغى أن يكون عليه المريد الصادق .

لقد كانت هناك جوانب كثيرة فى الأجواء التى تزعم انها صوفية قد دب إليها الفساد ، وسلك بعض المدعين مسالك ، لا تمت إلى الدين ولا إلى التصوف بصلة ،

كما هو الشأن دائما فى المدعين المزيفين الذين يوجدون فى كل عصر ، وفى كل ميدان ؛ فأشفق الإمام القشيرى « على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر : (اى امر التصوف) على هذه الجملة قد بنى قواعده ، وعلى هذا النحو سار سلفه » .

وقاده هذا الإشفاق إلى أن يكتب هذه الرسالة ، مبيناً فيها جانبين :

الجانب الأول : سيرة رجال التصوف وبعض أقوالهم ، وذكر فى هذا الجانب كثيراً من أعلام الصوفية ، كنماذج ، لسير المريد على هديهم .

أما الجانب الثانى : فانه مبادىء السلوك ومناهجه . . . أوكما يقول هو بأسلوبه :

« ذكرت فيها بعض سير شيوخ هذه الطريقة فى : آدابهم ، وأخلاقهم ، ومعاملاتهم وعقائدهم ، بقلوبهم ، وما أشاروا إليه من مواجيدهم ، وكيفية ترقيهم من بداياتهم إلى نهاياتهم ؛ لتكون لمريدى هذه الطريقة قوة ، ومنكم لى تصحيحها شهادة ، ولى فى نشر هذه الشكوى سلوة ، ومن الله الكريم فضلا ومثوبة » .

ولقد كانت هذه الرسالة ، وما تزال ، النبع الصافى الذى يستقى منه كل دارس للتصوف وكل مستشرف لحياة النور .

تلك هى الرسالة القشيرية : أما كتبه الأخرى فان له :

٢ ــ فى تفسير القرآن : « لطائف الإشارات » طبع حديثا .

٣ ــ وله كتاب « الفتوى » التى أوردها السبكى فى الطبقات .

٤ ــ وله كتاب « حياة الأرواح والدليل على طريق الصلاح والفلاح » مخطوط بالأسكوريال .

٥ ــ وله كتاب « المعراج » فى بانكيبور ، وأخرجه وحققه الدكتور حسن عبد القادر ، نشر بالقاهرة .

٦ ــ وله كتاب « شكاية أهل السنة » ذكرها السبكى فى « طبقات الشافعية » كاملة .

٧ ــ وله كتاب « الفصول » وهو مخطوط بالقاهرة .

٨ ــ وله كتاب « اللمع » وهو مخطوط بالقاهرة .

٩ ــ وله كتاب « التوحيد النبوى » وهو مخطوط بالقاهرة .

١٠ــ وله كتاب « التيسير فى علم التفسير » وهو مخطوط فى الهند ، وليدن .

١١- وله كتاب « ترتيب السلوك » لم يطبع بعد، وموجود . مخطوط فى الفاتيكان .

١٢- وله كتاب « التمييز فى علم التذكير » فى استانبول ، وفارس ، والقيروان والقاهرة .

١٣- وله كتاب « القصيدة الصوفية » مخطوط بالقاهرة .

١٤- وله كتاب « الأربعين حديثا » مخطوط فى ليدن .

١٥- وله كتاب « شرح أسماء الله الحسنى » مخطوط فى : الموصل ، وفارس وتونس، ودمشق . وله كتب أخرى .

وقد توفى الإمام القشيرى صبيحة يوم الأحد ، فى السادس عشر من شهر ربيع الأول عام ٤٦٥ هـ : خمس وستين وأربعمائة بمدينة « نيسابور » ودفن بجوار شيخه ابى على الدقاق ، رحمهما الله رحمة واسعة .

الدكتور عبد الحليم محمود الدكتور محمود بن الشريف

رسالة الإمام القشيري

إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى تفرد بجلال ملكوته[١]، وتوحد بجمال جبروته[٢] وتعزز بعلو أحديته ، وتقدس بسمو صمديته[٣] ، وتكبر فى ذاته عن مضارعة كل نظير[٤] وتنزه فى صفاته عن كل تناه وقصور ، له الصفات المختصة بحقه[٥] ، والآيات الناطقة بأنه غير مشبه بخلقه .

فسبحانه من عزيز ، لاحد يناله[٦]، ولاعد يحتاله[٧] ، ولا أمد[٨] يحصره ، ولا أحد ينصره ، ولا ولد يشفعه ، ولاعدد يجمعه ، ولامكان يمسكه ، ولا زمان يدركه ، ولا فهم يقدره ، ولا وهم يصوره .

تعالى عن أن يقال : كيف هو ؟ أو أين هو ؟ أو اكتسب بصنعه الزين[٩] ، أو دفع بفعله النقص والشين ؛ إذ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، ولا يغلبه حى ، وهو الخبير القدير .

---

(١) ملكوته : سلطانه وملكه العظيم .
(٢) جبروته : قهره لغيره أو جبره لكل كسير .
(٣) صمديته : كونه المقصود فى الحوائج على الدوام .
(٤) مضارعة كل نظير : مشابهة كل شبيه .
(٥) وهى صفات الربوبية التى تميز بها عن خلقه .
(٦) لا حد يناله : لا حصر يدرك كنهه .
(٧) لا عد يحتاله : لا كثرة تجمعه وتقدر عليه بالاحتيال .
(٨) أمد : غاية .
(٩) الزين : الكمال والحسن .

أحمده على ما يولى ويصنع . وأشكره على ما يزوى[١] ويدفع[٢] ، وأتوكل عليه وأقنع ، وأرضى بما يعطى ويمنع .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، شهادة موقن بتوحيده ، مستجير بحسن تأييده .

وأشهد أن سيدنا محمدا عبده المصطفى ، وأمينه المجتبى[٣] ورسوله المبعوث إلى كافة الورى . صلى الله عليه وعلى آله مصابيح الدجى . وعلى أصحابه مفاتيح الهدى ، وسلم تسليما كثيرا .

هذه رسالة كتبها الفقير إلى الله تعالى عبد الكريم بن هوازن القشيرى ، إلى جماعة الصوفية بلدان الإسلام ، فى سنة سبع وثلاثين وأربعمائة .

أما بعـــد :

ـ رضى الله عنكم ـ فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه ، وفضلهم على الكافة من عباده ، بعد رسله وأنبيائه ، صلوات الله وسلامه عليهم ، وجعل قلوبهم معادن أسراره ، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره .

فهم الغياث للخلق ، والدائرون فى عموم أحوالهم مع الحق بالحق .

صفاهم من كدورات[٤] البشرية ، ورقاهم إلى محال[٥] المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية ، ووفقهم للقيام بآداب العبودية ، وأشهدهم مجارى أحكام الربوبية[٦] .

فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف ، وتحققوا[٧] بما منه سبحانه لهم من التقليب والتصريف .

---

(١) يزوى : يقبض ويمنع .
(٢) يدفع : يبسط ويمنح .
(٣) المجتبى : المختار .
(٤) صفاهم من كدورات البشرية : خلصهم وطهرهم من حظوظ أنفسهم ، حيث وهبهم المجاهدة والرياضة الدائمة .
(٥) محال : أماكن ومنازل .
(٦) مجارى أحكام الربوبية : مشاهدة تصرفات الله تعالى فيهم وفى غيرهم من العطاء والمنع والإسعاد والإضلال .
(٧) تحققوا : أى اتصفوا بالطمأنينة لقلوبهم بما أبرزته القدرة عليه والحكمة الأزلية .

ثم رجعوا إلى الله[١] ، سبحانه وتعالى ، بصدق الافتقار ، ونعت الانكسار ، ولم يتكلوا على ما حصل منهم من الأعمال ، أو صفا لهم من الأحوال . علماً منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد ، ويختار من يشاء من العبيد . لا يحكم عليه خلق ولا يتوجه عليه مخلوق حق . ثوابه : إبتداء فضل . وعذابه: حكم بعدل . وأمره قضاء فصل[٢] .

ثم اعلموا ، رحمكم الله ، أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ، ولم يبق فى زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم ، كما قيل :

أما الخيام فانهـا كخيامهم وأرى نساء الحى غير نسائها

حصلت الفترة[٣] فى هذه الطريقة . . ، لا ، بل إندرست[٤] الطريقة بالحقيقة :

مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء ، وقل الشباب الذين كان لهم سيرتهم وسنتهم اقتداء ، وزال الورع وطوى بساطه ، واشتد الطمع وقوى رباطه .

وارتحل عن القلوب حرمة[٥] الشريعة ، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة[٦] ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام[٧] . ودانوا[٨] بترك الإحترام ، وطرح الاحتشام ، واستخفوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا فى ميدان الغفلات وركنوا إلى اتباع الشهوات ، وقلة المبالاة بتعاطى المحظورات ، والارتفاق[٩] بما يأخذونه من السوقة ، والنسوان ، وأصحاب السلطان .

---

(١) رجعوا إلى الله : لعملوا بأحكام الله تعالى معتبرين من الهول والقوة ، مراقبين الله فى حركاتهم وسكناتهم ملاحظين أنفسهم بالانكسار والافتقار إليه تعالى .

(٢) وهؤلاء الموصوفون بما ذكر ، هم : المقربون المتصفون بالإحسان . وفى الخبر الصحيح : « ماالاحسان ؟ قال أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » والأمة درجاتهم متفاوتة ؛ وينقسمون إلى : أصحاب اليمين ، وإلى المقربين كما دل عليه القرآن الكريم ، فمن صح إيمانه وعمل بما أمر به شرعاً فهو من أصحاب اليمين ، ومن قلت غفلاته وتوالت منه نوافله وطاعاته ، وتوالى على قلبه ذكره ودعواته فهو المقرب والمحسن ، ويعبر عنه بـ « الصوفى » الذى صفا عن الأخلاق المذمومة وتخلق بالأخلاق المحمودة ، حتى أحبه الله وحفظه فى جميع حركاته وسكناته ، كما جاء فى الخبر الصحيح : «ماتقرب المتقربون إلى بمثل أداء ماافترضت عليهم ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه . فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به

(٣) الفترة : التراخى والتفريط فى طريقة الصوفية .

(٤) إندرست : زالت ومحيت ، يقصد أن طريقة الصوفية فى الحقيقة قد زالت معالمها من نفوس الكثيرين بعد أن غلب عليهم قلة المبالاة ومخالفتهم الشريعة .

(٥) حرمة الشريعة : احترامها .

(٦) أى جعلوا قلة الاهتمام بأحكام الدين أقوى وسيلة يصلون بوساطتها لمقاصدهم الدنيوية الخسيسة .

(٧) لم يفرقوا بين الحلال والحرام . بل جمعوا بينهما من غير تحر .

(٨) تدينوا بعدم احترام الشيخ والعالم والكبير . (٩) الارتفاق : الانتفاع .

ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال ، حتى اشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال. وادعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال[١] وتحققوا بحقائق الوصال[٢] وأنهم قائمون بالحق ، تجرى عليهم أحكامه . وهم محو[٣] ، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يدرونه عتب ولا لوم . وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية ، واختطفوا عنهم بالكلية[٤] . وزالت عنهم أحكام الشريعة . وبقوا بعد فنائهم عنهم[٥] بأنوار الصمدية ، والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا ، والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا ، بل صرفوا .

ولما طال الابتلاء فيما نحن فيه من الزمان مما لوحت ببعضه من هذه القصة وكنت لا أسبط إلى هذه الغاية لسان الإنكار ، غيرة على هذه الطريقة أن يذكر أهلها بسوء ، أو نجد مخالف لثلبهم مساغاً[٦] ؛ إذ البلوى فى هذه الديار بالمخالفين لهذه الطريقة والمنكرين عليها شديدة .

ولما كنت أؤمل من مادة هذه الفترة أن تنحسم[٧] ، ولعل الله سبحانه بجوده بلطفه فى التنبيه لمن حاد عن السنة المثلى فى تضييع آداب هذه الطريقة .

ولما أبى الوقت إلا استصعاباً . وأكثر أهل العصر بهذه الديار إلا تمادوا فيما اعتادوه واغتراراً بما ارتادوه[٨] . .

أشفقت على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر[٩] ـ على هذه الجملة[١٠] ـ بنى قواعده . وعلى هذا النحو سار سلفه .

---

(١) وهم أنهم وصلوا إلى الحقائق العلياء وتخلصوا من محبة ما سوى الله ، وتخلصوا أغلال الرقم لسوء فعل المولى سبحانه وأوصلوا عبد الصوفية هو فناء العبد عن أوصافه وعاداته فى أوصاف الحق سبحانه وتعالى .

(٢) أى وهموا أنهم اتصفوا بالقرب المعنوى من الله .

(٣) وهذا من وهمهم ، أى أنهم وهموا فيما يتعلق بالتكليف بعد فنائهم عن وجودهم إذ هذا يبقى فى الذهب ويعدم الوجود على ما يعتقد هؤلاء .

(٤) أى حدثت قلوبهم وأرواحهم فجأة سريعاً حتى لم يبق فيهم سمة لغيره تعالى .

(٥) أى عن أنفسهم .

(٦) أى للتقصير مدخلا .

(٧) أى أن تنقطع الأسباب المفضية إلى التهاون والتكاسل عما هو صلاح النفس .

(٨) ارتادوه : اختاروه وتلبسوا به .

(٩) وهو الوصول إلى أهل الحقائق والأحوال .

(١٠) مزاعمهم وادعاءاتهم .